

# كن كثرة في واحدٍ وتجنب الحشد

## رسائل الفيلسوف الرواقي سينيكا في ترجمة فاتحة ومقدمة من الطيب الحصني



رسائل الفيلسوف الرواقي سينيكا، رائعة من روائع الفلسفة القديمة، كتبت منذ حوالي 2000 عام في فترة اعتزال الفيلسوف السياسة مخافة بطش الإمبراطور به في السنوات الأخيرة من حياته، والتي انتهت بإعدامه فعلاً على يدي نيرون عن عمرٍ ناهز السبعين.



الطيب الحصني  
كاتب ومترجم سوري

بين دفتي الكتاب صورة أخلاقية للعالم الروماني القديم من عيني سينيكا، تظهر في قالب شخصي على شكل خطاب حميم بين الفيلسوف وصديقه، وهي صورة كثيراً ما تكون مفاجئة، خصوصاً من حيث قناعات سينيكا الدينية حول الإله الواحد، ومزاجته بين الوثنية والتوحيد خارج إطار المسيحية، وأيضاً من حيث موقفه الأخلاقي السابق لأوانه من معاملة العبيد في عصره.

الرسائل تكتيف للفلسفة الأخلاق الرواقية، فتعالج مفاهيم الثراء والبذخ وتأثيرهما في الفرد والمجتمع، والفقر والخوف منه، والسلطة والطغاة، والصدقة والخيانة، والحياة السعيدة والكتابة، والعلم والأدب.

ستصدر قريباً ترجمة عربية فاتحة لهذه الرسائل قام بها الكاتب والمترجم السوري المقيم في القاهرة الطيب الحصني الذي خص الجيد برسالتين منها ومقدمة الترجمة.

الرواقية، ذلك المذهب المتجزع يعود في الفلسفة والثقافة الغربيين يعود اليوم إلى التبرعم والإيراق في الثقافة الشعبية في العالم، فما الذي يجعل نصوصاً يعمر الأفيات تصاغ مجدداً، لتساعد الناس في القرن الحادي والعشرين على إيجاد الحياة السعيدة؟

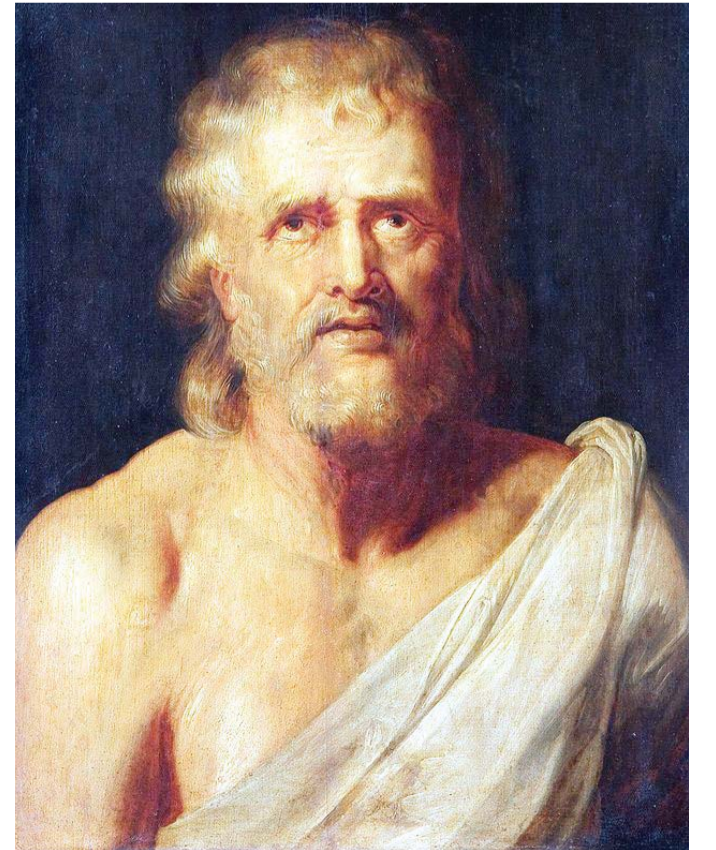
تاملات أوريليوس أو رسائل سينيكا، إلى حد ما، بكتب المساعدة الذاتية التي كثرت في عصرنا، مع فارق جوهري: إن سينيكا أو أوريليوس أو حتى من سبقهم من الرواقيين اليونان لم يجمعوا هذه الحكمة والممارسات بغية نشرها ربحياً، بل جمعوها عن قناعة إنسانية بقدرتها على التنوير.

ولعل رسائل سينيكا المثال الأوضح على ذلك، إذ كتبها في أواخر حياته - في القرن الميلادي الأول - بعد فقدانه الخطوة لدى الإمبراطور المستبد نيرون، ووجهها إلى صديقه، وقد نقول مُريده، لوكيكيوس، فجاءت حوارات على نمط أدب الرسائل، إلا أن الفلسفة والوعظ فيها لا يطغيان على المرح الأدبي الذي يملأ رسائل الصديقين، فانظر إلى المدخل الكوميدي السياسي الذي يحفظ فيه سينيكا لوكيكيوس في شأن الصداقة:

“لقد أرسلت لي رسالة مع ‘صديق’ من أصدقائك، على حد تعبيرك، وفي الجملة التالية حذرتني من مناقشة شؤونك معه (..) أي بكلمات أخرى: لقد وصفته بأنه صديق، وانكرت عليه ذلك في الرسالة نفسها. حسن، إذا كنت تستخدم الكلمة بالمعنى الشائع، وليس حسب معناها الدقيق عندنا، أي أنك تقول عنه ‘صديقي’ بنفس المعنى الذي نقول فيه عن المرشحين في الانتخابات أنهم ‘سادة محترمون’ (..) فلا حرج عليك في ذلك. ولكن إن كنت ترى في أي شخص صديقاً

إن إجراءات هذا المنهج الأخلاقي واضحة، فهو، فضلاً عن عودته، يبرز إلى حد كبير لماذا يكون كثير من الدارسين لمجال إنساني معين مخفقين فيه، أحد الأمثلة القريبة في الذاكرة هو انتحار جريجوري إيليس، مدير خدمات الدعم النفسي في جامعة بينسلفانيا، كما أيضاً الارتفاع الغريب لمعدل الانتحار بين المعالجين النفسيين مقارنة بعامه الناس. كل ذلك جزء من الدافعة القوية التي ترتكز عليها الرواقية الجديدة والتي تزداد قوة وعدد مريدين منذ أواخر القرن الماضي بكتب جديدة بأقلام فلاسفة كبار، وهناك أسباب أخرى تتعلق بارتباط العلم في الغرب بالمؤسسات الربحية والتعامل الإعلامي مع الفلسفة على نحو علموي لا تتسع للاستفاضة فيها هنا.

علاوة على ذلك، تشكل رسائل سينيكا إطلالة فريدة على العقائد الدنيوية والروحية في روما القديمة والتي كانت مقدّمة لخطاب الكنيسة والمفكرين والأدباء على قراءتها طبعاً، في تتبع تأثير المصطلحات والجدالات



سينيكا لوكيكيوس

### الفيلسوف سينيكا والطاغية نيرون - منحوتة في متحف الفاتيكان

للفلسفة القديمة، والباحثين في تطور الأديان، ولكنها قبل كل شيء رسالة تدعو إلى حياة أفضل.

### تجنب الحشد، وحشية الأريانا الرسالة VII

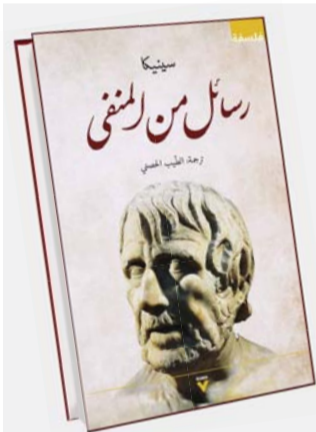
إنك تسألني ما الذي عليك اعتبار تجنبه ضرورة؛ جوابي هو التالي: الحشد الكبير. إنه شيء لا نستطيع أن ندخل فيه بلا مخاطرة. وأنا على أي حال مستعدٌ للاعتراف بضعفي في هذا المجال، فأنا لا أرجع إلى البيت بالشخصية الأخلاقية نفسها التي خرجت بها، إذ يتقلقل شيءٌ ما لدي حيث كنت سابقاً قد توصلت إلى سلام داخلي، ويعاودني مجدداً شيءٌ ما من الأشياء التي كنت قد تخلصت منها.

نحن الميزن نتعافى من مرض روحي مطوّل نمائل حالة الخاملين الذين تأثروا جداً بخلوهم الطويل بحيث لا يمكن إخراجهم من أبواب البيوت ولو مرة من دون تأثيرات سلبية. إن مصاحبة الناس ضمن أعداد كبيرة شيءٌ مؤذٍ بحق؛ ليس بينهم واحداً لن يُزيّن رذيلة ما في أعيننا، أو يتركنا حاملين انطباعاً من رذيلته أو ملوئين بها من دون أن نعي ذلك، ولا نَشك أنه كلما زاد حجم الحشد زاد الخطر.

ولكن لا شيء مدمرٌ للشخصية كإمضاء الوقت في الفرجة على عروض الأريانا، إذ هناك، عبر وسيط التسلية، تتسلل الرذائل إلى المرء بسهولة لا تضاهي.

ما الذي تفهمه من كلامي؛ أنني أعود إلى بيتي أكثر أناثية وأكثر اتباعاً لنفسي وتساهلاً معها؛ أجل، وأكثر من ذلك، أعود شخصاً أكثر وحشية وأقل إنسانية لأنني كنت على تواصل مع البشر. ذهبت مرة إلى إحدى تلك العروض في استراحة الغداء، متوقفاً أن تكون هناك تسلية خفيفة ونكية في ذلك الوقت، وبعض التروّي والرافة لإراحة عيون الناس من سيلان الدم البشري. ولكن الأمر كان عكس ذلك، فكل ما سبق ذلك العرض لا يعدو كونه عملاً خبيرياً إذا ما قورن بما شاهدت فيه. فالكلام الفارغ قد انتهت وقته الآن؛ والآن أمامنا القتل صرفاً وببساطة. المقاتلون لا يلبسون ما يحميهم، وأجسادهم كلها عارية أمام الضربات، وكل طعنة يلقونها تُصيب الهدف. والكثير من المشاهدين يفضلون ذلك على المباريات العادية، وحتى على المباريات الخاصة التي تنظم لإرضاء الطلب الجماهيري. وهذا طبيعي جداً، إذ ليس ثمة خوذ أو دروع تصد الأسلحة. ما المغزى من الدرع؟ أو من المهاردة كل هذه الأشياء لا تقيد سوى في تأخير الموت.

النص كاملاً على الموقع الإلكتروني



### الرسائل تكتيف لفلسفة الأخلاق الرواقية، فتعالج مفاهيم الثراء والبذخ وتأثيرهما في الفرد والمجتمع، والفقر والخوف منه، والسلطة والطغاة، والصدقة والخيانة، والحياة السعيدة والكتابة، والعلم والأدب



الرواقية في رسائل بولس الرسول والأنجيل، وحازت أعمال سينيكا على رضا المسيحيين المبكرين، فدرجه القديس جيروم ضمن فهرست الكتاب المسيحيين.

ومع أن لذلك أسباباً تاريخية - إذ اعتمد جيروم على رسائل مزعومة بين سينيكا وبولس الرسول - فإن كتابات سينيكا نفسها تفيض بأفكار توحيدية عن إله عادل مهندس للكون، والروح الخالدة، ويواظم سينيكا بينها وبين التقدير الذي يحافظ عليه لإلهة روما القديمة، إلا أنه من جانب آخر يرفض الخرافات، فيقول “ليس هناك حاجة لنرفع أيدينا إلى السماء، ولا حاجة بنا للتوسل لكاهن المعبد ليسمح لنا بالاقتراب للحديث من صورة منقوشة، وكان هذا يزيد من فرصتنا في أن نسمع”.

والحقيقة أن المرء يجد نفسه في شيء من الحيرة عند تقديم سينيكا، ذلك أن خصوصية نثره تستغفر كل معارف المرء، ومحال أن يعر فيه من دون أن يجد معتقداته تتشذب في مكان كان يحسبه ثابتاً، وتورق في بقعة كان يحسبها جرداء إلى الأبد، وفي مكان ثالث يجرح سينيكا غسناً ثابتاً من معرفتنا بأنفسنا، ليطعمها بفكر جديد.

أسوق على ذلك مقالاً واحداً، اتهاماته للفلاسفة بانهم “حتى هم اندحدروا إلى مستوى تحديد الاستعمالات المختلفة للمقاطع الصوتية، ومناقشة المعاني الصحيحة لحروف الجر والعتف. لقد صاروا يحسدون عالم فقه اللغة والرياضيات، وقد استحوذوا على كل العوامل السطحية من تلك الدراسات”. إن رايه هذا يتردد كصدى قديم للاتهامات التي يكيلها الفلاسفة التحليليون اليوم لزملائهم القاريين، حتى إن النصف الثاني من الاتهام تكرر حرفياً في العقود الأخيرة عدداً من المرات بأقلامهم، وما يحضر في البال مباشرة هو نقد ليونارد جاكسون القاسي لما كتبه ليفي شتراوس في 1952 “إننا نجد أنفسنا نحن الأنثروبولوجيين في وضع حرج بإزاء الألسنيين. فقد اشتغلنا معهم جنباً إلى جنب، ثم (...) رأيناهم ينتقلون إلى الجهة الأخرى من الحاجز الذي يفصل العلوم الطبيعية عن العلوم الإنسانية (...) ألم بنا من جهتنا شيء من الحزن، كما انتابنا كثير من الحسد (...) إلا يسعنا نحن أيضاً أن نطبق على هذا الحقل المعقد الذي تدور فيه أبحاثنا - القرابة، التنظيم الاجتماعي، الدين، الفلكلور، الفن - تلك المناهج الصارمة التي تبرهن الأسس على كل يوم على فعاليتها”.

لم تات شعبية رسائل سينيكا عبر القرون من عبث، ولا انكباب كبار المفكرين والأدباء على قراءتها طبعاً، إنها منهل متعدد الجداول للنهيم

ولا تبقى به كما تبقى بنفسك فانت تقع في خطأ فادح، وقد أخفقت في أن تفهم حقاً القوة الكاملة للصدقة الحقيقية”.

هذه الرسائل التي كتبها سينيكا من معتزله عن السياسة والحياة العامة - أو منغاه عنها، إذ أن فقدان الخطوة لدى نيرون يعني تهديداً مستمراً بالقتل - تشكل خلاصة ما وصل إليه الفيلسوف من نصح للحياة الرشيدة والسعيدة، ولو سمحت لنفسي بأن أعيد صياغة جوهرها باقصر ما يمكن سيكون على الشكل التالي:

ندري جميعاً أن قسماً كبيراً من المهارات هي فنون، لا يمكن إدراكها بالدرس، فانت مثلاً، لن تصبح ماهراً في إحراز الأهداف من الرحلات الحرة عبر دراسة المعادلات التي تربط بين وزن كرة القدم وتسارعها وانحرافها بالدوران، ولن تتجسج في أن ترسم “بورترهيات” جميلة عبر دراسة المنظور الهندسي والأبعاد، بل عليك أن تمسك القلم وتحاول رسم وجه تلو الآخر، ومن ثم بعد عرضها على من أثبتوا جدارتهم في ذلك الفن، تتبع نصيحتهم لتجويد رسمك، وكذلك كي تتعلم تحقيق الأهداف من الرحلات الحرة لا بد لك من أن تقف على الملعب نفسه، وأن تتدرب على عدد كبير منها، حتى تبدأ بالتحسن. والإنشاء الرواقي هو أن معظم ما نعاني من الإخفاق فيه في حياتنا: الصداقة، العمل، الحب، الحداد على مواننا، وهلم جزءاً، لا بد من إتقانها بنفس الطريقة، وفائدة دراستها نظرياً هي كفاية معادلات تسارع الكرة للاعب كرة القدم شبه معدومة. وعلى ذلك فإن سينيكا يعطينا توجيهات قصيرة ودقيقة، جارحة وبليلة، وبعدها بصداقات تدوم، وعلاقات لا تنتهي باحزان، وأعمال تحقّق فيها ذواتنا من دون الانهيار أمام الكتابة.

إن إجراءات هذا المنهج الأخلاقي واضحة، فهو، فضلاً عن عودته، يبرز إلى حد كبير لماذا يكون كثير من الدارسين لمجال إنساني معين مخفقين فيه، أحد الأمثلة القريبة في الذاكرة هو انتحار جريجوري إيليس، مدير خدمات الدعم النفسي في جامعة بينسلفانيا، كما أيضاً الارتفاع الغريب لمعدل الانتحار بين المعالجين النفسيين مقارنة بعامه الناس. كل ذلك جزء من الدافعة القوية التي ترتكز عليها الرواقية الجديدة والتي تزداد قوة وعدد مريدين منذ أواخر القرن الماضي بكتب جديدة بأقلام فلاسفة كبار، وهناك أسباب أخرى تتعلق بارتباط العلم في الغرب بالمؤسسات الربحية والتعامل الإعلامي مع الفلسفة على نحو علموي لا تتسع للاستفاضة فيها هنا.

علاوة على ذلك، تشكل رسائل سينيكا إطلالة فريدة على العقائد الدنيوية والروحية في روما القديمة والتي كانت مقدّمة لخطاب الكنيسة والمفكرين والأدباء على قراءتها طبعاً، في تتبع تأثير المصطلحات والجدالات